الفصل العشرون

وذات مرة جئت بيت الشيخ وجعلت أدق الباب كعادتي إلا أن الشيخ لم يرد علي ولم يأت حركة تدل على وجوده في غرفة المكتبة . وعجبت ، فالنور كان في الغرفة مضاء . . لقد رأيته عبر الزجاج فوق الباب . وتساءلت : هل هو داخل البيت ؟ هل تأخر عن الاستيقاظ فهو يتوضأ مثلاً ؟

كنت أحتفظ بمفتاح لباب الغرفة ، فالشيخ أعطاني المفتاح لأدخلها متى أشاء ، وكثيراً ما كنت أجيء فأفتح الباب وأدخل وأجلس وأرتاح وأقرأ والشيخ ليس موجوداً أو يكون داخل البيت .

ترددت قبل أن أخرج المفتاح من جيبي ثم فعلت . . وما أن شققت الباب وأطللت برأسي حتى رأيت منظراً عجباً . فالشيخ كان جالساً في مكانه إلى طاولته ولكنه كان نائماً ، كان نائماً وهو جالس . . مالت رأسه على كتفه وقد ظهر مستغرقاً في النوم .

دخلت بخطى خفيفة بعد أن غلقت الباب بلطف ، ثم دنوت من الشيخ وعيناي عليه . . وما أن صرت منه على بعد خطوات حتى داهمني فجأة شعور غريب قوي طاغ لا أدري سببه أو مبعثه . فمنظر الشيخ لم يكن عادياً . كان مائلاً إلى أمام قليلاً ، كما أن رأسه لم تكن مستريحة بل كانت هابطة ، أجل كانت هابطة هبوطاً على جانب الكتف والصدر .

ومع هذا فإن شعوري لم يرق إلى مستوى إدراكي . لقد أحسست أن في الجو شيئاً غير عادي لكنني لم أفكر جدياً في هذا الشيء غير العادي .

استمر الاحساس هنيهات قصار ، ثم . . ثم داهم الخوف رأسي ، وفي تلك اللحظة بالذات تمتمت بصوت مرتجف : سيدي ، يا سيدي . . ولم يجب ، وامتدت يدي ، وبرؤوس أصابعي المرتجفة لمست كتفه وما أن دفعته قليلاً حتى هوى دفعة واحدة على الطاولة .

قفزت كالملسوع وأمسكت به ورفعته ونظرت إلى وجهه ، وما أن رأيت عينيه حتى علمت الحقيقة التي لا تصدق . فالشيخ قد فارق الحياة . هل يعقل هذا ؟

ودون أن أدري هززت وجهه ثم كتفيه ثم ملت على صدره علني أسمع دقات قلبه ، ثم جسست يده . آه ، لم يكن هناك دق ولا نبض . ثم إن نظرة العينين العجيبة والتي لم أرها من قبل في عيني الشيخ قط ، هذه النظرة أكدت لي أن الشيخ قد مات ، وأن هاتين العينين لم تعودا عينيه على الإطلاق .

من رأى منكم ذات مرة عيني إنسان ميت ؟ إن عين الميت هي غير العين العادية بل هي غير العين البشرية . عين الميت موات ، تعبير عن الموت . . إنهما قطعتان من الزجاج لا أكثر ، زجاج بلا انعكاس ولا وميض ولا إشعاع . لقد انطفأ شعاع الحياة في نافذة الروح تلك .

تركته والتفت ورائي وبي رغبة في أن أصرخ ، أصيح ، أعول ، أركض إلى الباب المفضي إلى البيت لأنادي زوجة الشيخ . لقد عمني الاضطراب ، وساد الظلام رأسي وعقلي . كدت أن أتصرف كما هو متوقع . كما تتصرف النساء غالباً . لكنني ، وفجأة ، وعيت شيئاً آخر ، فكأن وامضاً من خاطر ومضى في رأسي . لقد تذكرت كيف تلقى الشيخ نبأ وفاة ولده وكيف تصرف بعد ذلك .

كنت أرتجف . . من البرد والانفعال والاضطراب . كنت أرتعش كريشة في مهب الريح . ومع هذا فلقد أفلحت في أن أكبح نفسي وأعصابي وأن . .

وأن أتصرف على نحو غير عادي . . أن أتصرف كما تصرف الشيخ من قبل حين عاش موقفاً كهذا الموقف . . الرهيب .

التفت إليه وملت عليه وبلهفة حملته ، أجل حملته . . من تحت إبطيه رفعته ، وإلى الأريكة مشيت أسحبه ، ثم أضجعته على الأريكة . رفعت نصفه الأعلى أولاً ثم رفعت نصفه الأسفل ، ثم طويت ذراعيه على صدره ، ثم نشرت غطاء وغطيته ، غطيته حتى عنقه . . ثم حانت مني نظرة إلى عينيه ، عينيه اللتين لم تعودا عينيه ، فامتدت يدي وغطت أصابعي العينين بالأجفان . . ثم وقفت لحظات أتأمل وجهه ، وفجأة أجهشت بالبكاء . .

لا أدري كم بكيت . . لكن الشيخ كان يواسيني ويخفف عني . من يصدق هذا ؟ لا أدري كيف أسمي هذا الحضور الذي أحسسته ، لكنه كان موجوداً ، موجوداً ومملوءاً وجوداً . كانت جثته أمامي لكنه ، هو ، كان معي ، بجانبي ، يميل علي وهو يهدئني ويلاطفني ويربت مواسياً على كتفي .

استمر الموقف دقائق ثم كففت . . كففت عن البكاء وجعلت أمسح دمعي . . ثم نهضت واقفاً متمتماً : إيه ، لا إله إلا الله ، كل من عليها فان ، كل نفس ذائقة الموت ، رحمة الله عليك يا شيخي .

في تلك اللحظة علا صوت المؤذن من الجامع القريب فانتبهت ، أجل انتبهت .

كان علي أن أذهب إلى الجامع ، أجل ، فالشيخ لما مات ولده تركه في غرفته وذهب إلى الجامع . لم يؤخر شيخي صلاته فكيف أؤخرها أنا ؟

ومع هذا فلقد ظللت فريسة تردد ، وأنا أنظر إلى باب الغرفة المؤدي إلى داخل البيت . فلو أن امرأة الشيخ جاءت وشقت الباب ودخلت ورأت زوجها ميتاً فماذا تفعل ؟

أطفأت النور ، فذلك ادعى للاطمئنان ، فالشيخ ما كان يدع الصلاة في الجامع إلا حين يكون مريضاً . كان الشيخ يشتكي قلبه في الشهور الأخيرة ،

ولقد خططه مرتين ، ووصف له الطبيب نقوطاً مقوية للقلب . آه ، أترى أن مرض القلب وراثي في العائلة ؟

غادرت الغرفة راداً الباب ورائي ومضيت إلى الجامع . لم يكن في الشارع أحد ، وشعرت بوحشة شديدة وفراغ قاس كبير . ورفعت رأسي ناظراً إلى السماء التي تلمع فيها بقايا نجوم . آه في مثل هذا الوقت ، فجر أمس ، كنت أنا والشيخ في طريقنا إلى الجامع . هكذا يُبدل الحال بين عشية وضحاها ، بين عشية وفجرها .

وصلت الجامع ودخلته . وكعادتي توجهت إلى الصحن الخارجي . صحيح أن الدنيا شتاء والطقس بارد ، ولكنني لم أكن أنسى منظر الصحن والبركة التي يتدفق منها الماء والحمائم التي تطير وتحط وتصفق بأجنحتها وتهدل وتملأ المكان كله أنساً .

توضأت ، ثم جلست على حافة الممشى أتأمل المنظر الذي لم أمّله قط . فهاهنا كانت حياة ثانية ، حياة أخرى ، حياة تختلف تماماً عن الحياة في العالم الخارجي . يمكن القول إن كل إرهاصات الشيخ عن الحياة السعيدة الهانئة التي سيحياها الإنسان في جنات الفردوس نزلاً قد وجدتُ بشائرها هنا في صحن الجامع ، بين الماء والأطيار والسماء المفضضة بأوائل أنوار الفجر .

آه حزيناً كنت ، ومع هذا فإن رعشة سرور كانت تخالط حزني هذا يمكن القول إن حزني كان مجبولاً بشعور آخر مناقض ومخالف . لا أدري كيف يمكن التعبير عما جاش به صدري ، إلا أنني كنت على استعداد لأن أعلن بأعلى صوتي أنني كنت سعيداً في حزني ، وأنني لو نظمت قصائد تصف مشاعري هذه لاخترت للديوان عنواناً فريداً . . لكنت سميته الحزن السعيد أو . . أعراس الحزن .

لم أدر كم ظللت جالساً على حافة الممشى شارداً في عوالمي . كنت أسمع أصوات الناس المتناهية من قلب الجامع لكنني كنت بعيداً عنهم . . أجل بعيداً عنهم . فالشيخ كان معي هناك . . كان معي مثلما كان معي في رحلات الصيد

وحفلات الصيد . وكما كنت أراه من بعيد وأراقبه من بعيد وهو جالس وحده مستنداً إلى الشجرة وسارحاً في عوالمه كذلك كان حضوره الآن . فالشيخ لم يمت ، لم يمت وإن مات . روح الشيخ كانت أكبر من أن تموت . لقد تجسدت هذه الحقيقة منذ أن اكتشفت وفاته في مكتبته . ترى أوَلَمْ تحوم روحه حولي وأنا ، هناك ، منحن أبكي فوق جثمانه ؟ ألم تعزني ؟ ألم تواسني ؟

وألقيتني أبكي من جديد . إنسابت دموعي دون أن أدري . فالشيخ راح . ذهب في رحلة بلا عودة وتركني أنا ، هذه المرة ، وحدي . لطالما خفت هذه النهاية عندما كنت أراه منطلقاً في عوالمه في البستان وكأنه فارقني وما فارقني . روح الشيخ كانت دائماً تحقق هذا الانفصال وتطير . . تنسل من الجسد وتصفق بجناحين من ضياء وتطير . . في سماء بلا حدود وإلى آفاق اللانهاية تطير .

أخيراً سمعت آذان المؤذن يدعو لأداء صلاة الفجر فنهضت ودخلت ثم وقفت أرى المصلين الذين وقفوا يصطفون وراء الإمام . شيخي كان الإمام ، وكان من عادة أحد الشيوخ أن ينوب منابه إذا غاب .

انضممت إليهم . . وقفت في الصف الأخير . وبدأت الصلاة . وارتفع صوت الإمام يتلو الفاتحة . صوت الإمام لم يكن مثل صوت شيخي ، فصوت شيخي كان عذباً ، كان ذا دفء عاطفي يتخذ سبيله إلى القلب فيهزه ويحركه بأصابع من شعاع .

ذهب شيخي . وهؤلاء المصلون لا يعلمون النبأ . . وما من أحد يعلم النبأ إلاي أنا وحدي ، أنا الحزين الذي اكتشفت أنني أصبحت هذا الصباح بلا شيخ ، بلا صديق ، بلا سمير ، بلا صفيّ ، بلا خليل .

آه يا رب . وعادت دموعي تطفر من مآقي من جديد .

بعد الصلاة لبثت جالساً ورأسي منحنية على صدري أفكر وأفكر . وفجأة تذكرت أمراً فرفعت رأسي وألقيت نظرة حولي ثم هببت واقفاً وأسرعت إلى الباب .

كان الصبح قد تنفس ، وانتشر ضياؤه في الطرقات . وجعلت أحث الخطو إلى بيت الشيخ ، وبي خوف من أن تكون امرأة الشيخ قد استيقظت و . . واكتشفت وفاته وهي في البيت وحيدة .

حين دخلت غرفة المكتبة بخطى خفيفة أحسست بشعور من يدخل إلى مشرحة . يا إلهي ، أإلى هذا الحد صار شيخي عني غريباً ؟ جثة في مشرحة ؟ لا ، لا وألف لا . تقدمت منه ونظرت إليه . آه ، الوجه الشاحب ، الوجه الشمعي الذي ازداد شفافية وشحوباً ، والعينان المغمضتان ، بل إنني اكتشفت شيئاً آخر . ففك الشيخ السفلي كان قد استرخى ومال إلى جانب . آه ، ألهذا السبب يربط الناس فك الميت بعصابة مشدودة إلى رأسه ؟؟ . . .

جلست على حافة كرسي مطيلاً النظر إليه . هذا الإنسان ، هذا السوبرمان كيف يمكن أن يرحل ؟ كيف يمكن أن يتركنا ويرحل ؟ وأنى للأرض أن تخلف هذا الإنسان ؟ هل هذا بشر يا ترى ؟ وكم عدد الذين بلغوا المقام الذي بلغه الشيخ ؟ إلى أية سماء رقت روحه يا ترى ؟

جعلت أردد آيات من القرآن وقد اجتاحتني قشعريرة ظلت تزداد حتى بدأت أرتجف . ومع تعاظم انفعالي كان لساني يسرع بالقرآن أكثر . وبين الحين والحين كنت أقترب من الشيخ وأقبله . . أميل عليه وأطبع قبلة خفيفة على خده أو جبهته أو عينيه . لا ، هذا الإنسان لم يتوف وهو ليس بميت . للميت حضور ، وهو حضور ثقيل ، ويشعر بهذا الحضور كل من يكون قرب الميت . . لكن شيخي لم يكن له حضور الميت . لا ، حي هو ، حي كما كان وأكثر مما كان . لقد مات الجسد لكن روحه باقية ترفرف حول جثمانه بجناحيها الشعاعيين . لقد ازداد حضور هذه الروح . وارتفع صوتي أكثر وأكثر وأنا أتلو قوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريراًمن فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ، عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، وإذا رأيت ثم

رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ، عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ، إن هذا كان لكم جزاءًوكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

لما فرغت كانت دموعي تجري على خدي وتساقط من ذقني . كنت أبكي بغزارة . . ثم انتبهت . . صحوت . . ومسحت دمعي . وألقيت نظرة ورائي .

لمحت أوراقاً جديدة للشيخ على طاولته ، فنهضت واقتربت من الطاولة وجعلت أتفحص الأوراق ، ووقع بصري على ورقة جاء فيها بخط الشيخ : كان ديوجينيز يحمل مصباحاً ويمشي في الأسواق يبحث عن الإنسان الكامل فلا يلقاه . . العارف صامت وآخر المعرفة الصمت .

آه . . . إلى هذا الأفق وصل الشيخ إذن ؟ العارف صامت وآخر المعرفة الصمت ؟ وما الذي عرفه الشيخ غير ما قاله لي ؟ وكيف كان بوسعي أن أعلم الجواب ؟ ! . . .

كنت مستغرقاً في التفكير حين سمعت حركة داخل المنزل . آه ، امرأة الشيخ استيقظت ، يا إلهي ، وكان . . وكان لا بد مما ليس منه بد .

فنهضت وقرعت الباب المؤدي إلى داخل البيت . قرعته مرات إلى أن سمعت صوت امرأة الشيخ . . وما أن شقت الباب حتى استأذنتها في الدخول قليلاً ، فسألتني وفي عينيها شبح الخوف عن زوجها فأجبت :

- اطمئني ، إنه مستريح على الأريكة . . . ولكنه متعب قليلاً

وبدأت أمهد الطريق قبل الحديث عن الموضوع الرئيسي . ووجدتني من حيث لا أدري أقول لإمرأة الشيخ ما كان هو قد قاله لها في صباح اليوم الذي توفي فيه وحيدها . شرعت في الحديث عن الأمانة التي استودعنا الله إياها ، وإن الله هو صاحب هذه الأمانة ، وأنه هو صاحب الحق في أن يسترد أمانته متى يشاء . . . و . . وهنا جعلت عينا المرأة تدوران من الخوف . . لقد اتسعتا ، تذبذبتا ، جحظتا ، ثم أطل منهما الرعب . . رعب عظيم وهي تسألني :

ـ ما الذي أصاب الشيخ ؟ قل أجبني ؟

حاولت أن أجيب فلم استطع . ارتجف صوتي ثم انقطع ثم أطرقت برأسي مستسلماً لانفعالي ، وما هي إلا هنيهات ثم حتى هبت المرأة واقفة وهي تصيح : زوجي ، زوجي

تمت كتابة المخطوط في ٢٤ نيسان ١٩٨٥